المحاضرة الأولى

النّحو العربيّ النّشأة والتّقعيد:

بدايات النّشأة ومنهج التّقعيد:

اختلفت الروايات حول الإطار الزماني والمكاني لنشأة النّحو العربي، وأسبابه، والواضع الأوّل له، كما اختلفت حول رجاله الأوائل ومنهجهم فيه، وما خلّفوه من إنتاج فكري وعلمي. لذلك لم يكن من السّهل علينا ذكر هذه النقاشات كلّها في هذا الدرس لكثرتها وتشعّبها، لكنْ ما توصّلنا إليه من خلال اطّلاعنا على كتب الدّارسين التراثيين والمحدثين أنّ أكثر الروايات شيوعا تشير إلى أنّ الحركة الأولى لسير البحث النّحوي قد بدأت تتجلّى عند علماء اللّسان العربي الأوائل في القرن الأول الهجري، وكانت الانطلاقة الأولى في العراق موطن الحضارات والعلوم والمعارف قبل الاسلام على يد أبي الأسود الدؤلي (ت:69هـ) الذّي قاوم من خلالها ظاهرة اللّحن الّتي تفشّت على ألسنة الموالي وبعض عوام النّاس ممن ضعُفت سليقتهم، ورسم المبادئ الأولى للنّحو العربي، وأخرجه من العدم إلى الوجود، وأسّس للّغة العربية، وفتح بابها، ووضع قياسها. وكان الغرض الأساسي منها ضبط القواعد التي يسير عليها إعراب الكلمات ليسهل تعلّمها، واحتذاؤها في الحديث والكتابة، حتى قيل له من أين لك هذا العلم ؟ – يعنون النحو– فقال لقِنتُ حدودَه من على بن أبي طالب – عليه السلام–. وقال الزبيدي: "وهو(يعني أبا الأسود) أوّل من أسّس العربية، ونهج سبلها، ووضع قياسها، وذلك حين اضطرب كلام العرب وصار سَراة النّاس ووجوههم يلحنون". وبهذا الصّنيع الّذي قام به أبو الأسود أصبح اسمه مقرونا عند الباحثين بنشأة النحو العربي، فكلّما ذُكر ذُكر معه النّحو.

ومهما قيل في الجانب التاريخي لنشأة النّحو العربي وأسبابه، فإنّ هذه المبادئ الأولى تُعدّ إنتاجا علميا بسيطا استدعته الضرورة، لكن سبقته – فيما أزعم– مراحل أخرى يمكن اعتبارها أسس ارتكاز لبناء هذا العلم، والمتمثلة في ما كان يُعرف في العصر الجاهلي بالأسواق الأدبية (عكاظ ومجنة وذو المجاز) أين كانت تُقام المناقشات والمناظرات من أجل تصحيح ما هو خارج عن خصوصية اللّغة العربيّة من أقوال الشعراء والخطباء باعتبارهم أرقى طبقات المجتمع عقلا، وأغناهم لغة وبيانا فكان الاستماع إلى الملفوظ منهم وتقييمه من خلال قولهم: هذا أشعر بيت قالته العرب؟ وهذا أشعر بيت قاله فلان، والفرزدق أشعر من جرير ولماذا رفعتَ هذا ونصبتَ ذاك وغيرها، لا يعدو أن يكون انطباعيا تذوقيا لكنّه جاء وفق ضوابط أقرّها فيما بعد النقد الأدبي واللّغوي. كلّ ذلك أبقى اللّغة العربية إلى يومنا هذا متماسكة أساساتها، محكمة قواعدها غير مشوبة بعجمة ولا لكنة.

وأضحى العرب على معرفة تامة بأساليب كلامهم وفق سليقتهم التي فطروا عليها إلى أن لاح نور الإسلام على الجزيرة العربية وما حولها من خلال الفتوحات الإسلامية ودخل الناس في دين الله أفواجا

واختلط الأعجمي بالعربي بالمصاهرة والموالاة فاختلطت اللّغات وتأثرت ببعضها البعض وأثّرت.

إنّ المنهج الّذي اتّخذه أبو الأسود الدؤلي في بناء قواعد انتحاء سمت كلام العرب عبارة عن ملاحظات وتصحيحات لغوية، وتأملات نحوية، أو محاولات لدراسة مشكلة لغوية آنية سجلها فور سماعه الخطأ الذي وقع فيه ذلك الأعرابي الذي قرأ الآية الثالثة من سورة التوبة:((وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ **وَرَسُولَه**)) بكسر لام (رسوله)، فقام على الفور بتصحيح القراءة، ووضع الشكل والتنقيط للقرآن الكريم بناء على أوامر وجهها له علي –رضي الله عنه–، فكان هذا الصّنيع أولَ عمل لغويّ قام به أبو الأسود الدؤلي، وهو عمل لغويّ وصفيّ خالص، لا تحليلي ولا معياري يظهر ذلك من خلال كلامه الموجّه لكاتبه بقوله : إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه إلى أعلاه، وإن كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف، وإن ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف.

هذا المنهج جعله أيضا يهتدي إلى استعمال بعض المصطلحات اللّغوية المهمّة (الفتحة، والكسرة، والضمة) وكلّها تعتمد على تتبع حركات الإعراب عن طريق السمع، وملاحظتها عن طريق البصر، وهذه عملية تنمّ على عِلميّة صاحبها ببعض الأفكار النحوية، والصوتية. ولعلّ هذه المسائل تُعتبر "كشفا هائلا يقف من بناء صرح النّحو العربي موقف اكتشاف النّار من تقدم الحياة الإنسانية

ومن الواضح أنّ هذه الملاحظات هي التي فتحت المجال أمام جمهور العلماء الباحثين ممن جاءوا بعده إلى تطويرها من حيث شكلها ومضمونها، واتّخاذها سندا حقيقيا للدّرس النّحوي العربي، والمدّ في أرجائها، ومن ثم الارتقاء بمسائلها إلى مراتب حيّرت علماء الغرب في الدراسات الحديثة.

لقد ظلّت هذه الطّريقة الوصفية مع العلماء في مشافهتهم أعراب البادية الموثوقِ بصحة لغتهم لمعرفة الصّور الواقعية للكلام قصد بناء معايير و قوانين وقواعد عامة، إلى أن جاء من بعدِ أبي الأسود الدؤلي أبناؤه، وأصحابه، وتلامذته فعمِل كلٌّ على تطوير صنيعه من أمثال: عنبسة الفيل المهريّ، وميمون الأقرن، ونصر بن عاصم الليثيّ (ت: 89هـ)، وابن أبي إسحاق الحضرمي(ت:117هـ)، ويحي بن يعمر (ت:129هـ)، وعيسى بن عمر (ت:149 هـ)، وأبي عمر بن العلاء (ت: 154 هـ) فأخذوا عنه ما وضعه، وزادوا فيه ما زادوا.

ومن هنا بدأت هذه الدراسة تتطور، وتأخذ صورا أخرى كظهور القاعدة النحوية، والتدوين، وظهور بوادر الخلاف النحوي، وغير ذلك من المظاهر المختلفة الجوانب. قال السيوطي:" وأما فيما روينا عن الخليل فإنه ذكر أن أبرع أصحاب أبي الأسود عنبسة الفيل، وأن ميمونا الأقرن أخذ عنه بعد أبي الأسود فرأس الناس بعد عنبسة وزاد في الشرح، ثم توفي وليس في أصحابه أحد مثل عبد الله بن أبي إسحاق

الحضرمي وكان يقال: عبد الله أعلم أهل البصرة، وأنقلهم ففرع النّحو وقاسه وتكلّم في الهمز حتّى عمل فيه كتابا مما أملاه وكان رئيس الناس وواحدهم".

والحاصل من خلال تتبع حركة تطور منهج التأسيس للدرس النّحوي عند العرب الأوائل أنّه كان في بدايته مبنيا على الملاحظة فقط، ثم أصبح مبنيا على الملاحظة والشرح، وهذا ما كان يقوم به ميمون الأقرن. جاء في المراتب: " وكان ميمون يكنى أبا عبد الله، فرأس الناس بعد عنبسة، وزاد في الشرح".

وهكذا بدأت ملامح التدرج النّحوي في التطور شيئا فشيئا حتى وصلت ما وصلت إليه عند عبد الله بن أبي إسحاق، لقد دلّت المصادر أنّه :" كان أول من بعج النّحو ومدّ القياس وشرح العلل "فمنهج ابن أبي إسحاق في الدراسات النّحوية يختلف عمّن سبقوه، حيث بدأ في "إنشاء آلة نحوية لها من الاطّراد والبعد عن التوسّع والشّذوذ ما يعصم الألسنة من اللّحن والخطأ"، وتجريد الأصول، ومدِّ القياس، والتّفريق بين عمل النّحويين وعمل اللّغويين، فكان بحق أعلم الناس. سُئل يونس بن حبيب عنه وعِلمه فقال:" هو والنّحو سواء، أو هو الغاية، وقيل له: فأين علمه من علم النّاس اليوم ؟ قال: لو كان اليوم في الناس أحد لا يعلم إلا علمه لضُحك منه، ولو كان فيهم مَن له ذهنه ونفاذه ونظره كان أعلم الناس"

فالملاحظ لمنهج ابن أبي إسحاق يُدرك أنّ الدّراسة النّحوية بدأت تأخذ منحى تطوريا يعتمد على الفطنة والحنكة اللّغوية في وضع هيكل هذا البناء الجديد متخذا اللهجات العربية ميدانا لكل دراسة يقوم بها فكان الاستقراء، والقياس وكان شديد التمسك به، حتى إنه ليخالف جمهور القراء في بعض قراءتهم تمسكا بالقياس النحوي.

ثم جاء من بعده أحد تلامذته وهو عيسى بن عمر وهو الذي مكّن للنّحو وقواعده التي اعتمدها تلميذه الخليل، ومن جاء بعده من البصريين، وفتح بذلك جهودا نحوية اتخذ فيها منهج أستاذه الحضرميّ، فكان شغوفا بالقياس حريصا عليه، مولعا بالغريب، وبذلك كان في مرتبة الجدّ العلمي.

ثم جاء أبو عمرو بن العلاء الذي قال فيه الجاحظ :" كان أبو عمرو أعلمَ النّاس بالعرب والعربية، وبالقراءة والشّعر، وأيام النّاس، وكانت داره خلف دار جعفر بن سليمان وكانت كتبه التي كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتا له إلى قريب من السقف".

وبهذا يكون أبو عمرو عالما، مؤرخا، قارئا، لغويا، منظرا، متدبرا، جادا في إرساء أمور اللّغة وما حوت، متخذا في ذلك منهجا مخالفا في أركانه لمن سبقوه من النّحاة خاصة فيما تعلق بالطعن في كلام العرب الفصحاء. فقد سُئل ذات مرة: كيف تصنع فيما خالفَتْك فيه العرب وهم حجة؟، قال:أعمل على الأكثر وأسمّي ما خالفني لغات"، بهذا يكون منهجه الاعتماد على القياس، والسّماع مع الحرص على الاعتماد على الأكثر، وإذا وجد في كلام العرب ما يخالفه يسمّيه لغة، ولا يقيس عليه الظواهر المشابهة.

وجاء بعد هؤلاء الخليل بن أحمد الفراهيدي:(ت:154هـ) الذي تقول البحوث اللّغوية أنه كان يعتمد في منهجه على القياس والتعليل والسماع في تأسيس الدرس اللّساني وتأصيل قواعد النّحو والصرف. وبنى الخليل آراءه على ما كثر استعماله عند العرب في كلامهم. قال أبو بكر الزبيدي اللّغوي فيما نقله عنه السيوطي:" هو الّذي بسط النّحو ومدّ أطنابه وسبب علله وفتق معانيه، وأوضح الحجاج فيه، حتى بلغ أقصى حدوده، وانتهى إلى أبعد غاياته...".

ثم بدأ يتطور منهج الدرس النحوي عند العرب الأوائل، وهذا ما نلمسه عند سيبويه (ت:180هـ) من خلال كتابه (الكتاب) الذي يعتبر المؤلف الأول لمنظومة النّحو العربي، وأنه "لم يسبقه على أصح الأقوال أي كتاب يماثله في غزارة المادة والدقة العلمية المتناهية"، حيث كان يتبع منهجا دقيقا مبنيا على التعليل والقياس في استنباط الأحكام النحوية مستشهدا بالقرآن الكريم، وقراءاته الصحيحة والشاذة، وبما قاله العرب، مستندا في كثير من الأحيان على ما أوحى إليه أستاذه الخليل من علمه، ولقنه من دقائق نظره، ونتائج فكره ولطائف حكمته. وقد قيل: من أراد أن يعمل كتابا في النّحو بعد كتاب سيبويه فليستح، ذلك لأنه يمثل علوم العربية كلّها من نحو وصرف وأصوات وعروض.

وقد اعتمد سيبويه في تأصيل الدرس اللّساني بصفة عامة والنحوي بصفة خاصة على منهج من سبقوه من أساتذته، حتّى بلغ النّحو ما بلغه من ضبط وتنظير.

ثم جاء يونس بن حبيب(ت:182هـ) حيث كان يعتمد على مشافهة الأعراب الفصحاء، مَرِنا في القواعد و الأقيسة، وفي مواقفه النحوية مع احترام النصوص، واضعا لنفسه آراء نحوية خالف بها من سبقوه.

وبهذا يمكننا القول أنّ النحّاة الأوائل من علماء العربية استطاعوا بحنكتهم وعلمهم أن يؤسّسوا في ظرف وجيز لعلم لم يكن موجودا إلاّ في مشافهاتهم، وأن يضعوا له قواعده، ويحددّوا له ميدانه، والاحتجاج له من مصادر اللّغة المختلفة.

كلّ هذه الدراسات والبحوث الأولى هيأت أرضيةً خصبةً لتطوّر النّحو وازدهاره ممّا أدّت إلى ظهور بوادر الخلاف، فكان التّسابق والمنافسة في العلم، وبرزت للوجود مدارس رسمت كلّ واحدة لنفسها منهجا خاصا بها، ولعلّ من بين أهمّ هذه المدارس: البصرة والكوفة.

<u>أسباب النشأة</u>:

1- <u>ظهور اللّحن وتسرّبه إلى اللّغة والقرآن</u>:

يعد اللّحن في الكلام الباعث الأول والأهمّ على تدوين اللّغة وجمعها، وعلى استنباط قواعد النّحو وتصنيفها. فقد أقلق اتّساع اللّحن وفشوّه أولي الأمر من العلماء والخلفاء خاصة عندما بدأ يسيطر على ألسنة الصفوة، والخواص من العرب بسبب احتكاكهم بغيرهم من الفرس والروم والأحباش بعد دخولهم

الاسلام، وهم الذين كانوا في الجاهلية وفي صدر الإسلام بارعين في نطقِهم بالسجية، وتكلّمِهم على السليقة، فسعوا إلى مقاومته للحفاظ على سلامة اللّغة العربية بصفة عامة والقرآن الكريم بصفة خاصة.

ولما رأى علماء العربية الأوائل أنّ هذا الفساد في الكلام قد تسرّب إلى لغتهم الفصيحة، وإلى قراءة القرآن سارعوا إلى وضع قواعد تقوّم من ألسنتهم، وتحمي لغتهم من الرطانة، والقرآن من التّحريف والتّصحيف. فكانت هذه الخطوة الأولى في وضع النّحو بمثابة ردّة فعل لتسرّب اللّحن إلى اللّغة والقرآن على الخصوص، فلابدّ إذن أن يكون الغرض منها هو إبعاد هذا الخطر عن نصوص القرآن، ولن يتأتّى ذلك إلاّ بوضع ضوابط علمية تحفظ عليه نصوصه، وتسهل على من لم يكن متمكّنا من العربية قراءته.

ومن بين مظاهر اللّحن ما روي عن النبيّ صلى الله عليه وسلّم أنّه سمع رجلا يلحن بحضرته فقال له: "ارشدوا أخاكم فإنّه قد ضلّ". إنّ هذا التوجيه النبوي لأصحابه بإرشاد أخيهم الّذي لحن في كلامه يبيّن وجود هذه الظاهرة من جهة، وخطورتها من جهة أخرى كون من وقع فيها كمن وقع في الضلال.

ومن بين الروايات التي تظهر خطورة اللّحن ما نقله السيوطي: أنّه روي عن أبي بكر الصدّيق– رضي الله عنه– أنّه قال: "لأن أقرأ فأُسقط أحبّ إليّ من أن أقرأ فألحن".

ومن بين الأقوال التي تبرز دور فشوّ اللّحن في ظهور النّحو ما رواه الزجاجي في أماليه عن أبي الأسود الدّؤلي أنّه قال: "دخلت على علي بن أبي طالب – رضي الله عنه– فرأيته مطرقا متفكّرا ، فقلت: فيم تفكّر يا امير المؤمنين؟ قال: إنّي سمعت ببلدكم هذا لحنا فأردت أن أضع كتابا في أصول العربية. فقلت: إن فعلت هذا أحييتنا وبقيت فينا هذه اللّغة ".

وقد قرأت في كتاب معجم الأدباء حديثا منسوبا إلى يزيد بن هبيرة الأكبر(كان أميرا في العراق) يبيّن مكانةَ مَن يلْحَن في المجتمع، وسوءَ عاقبته في الدّنيا والآخرة، حيث قال:"والله ما استوى رجلان دينهما واحد وحسبهما واحد ومروءتهما واحدة، أحدهما يلحن والآخر لا يلحن، إنّ أفضلهما في الدنيا والآخرة الّذي لا يلحن قال: فقلت (راوي الكلام) : أصلح الله الأمير هذا أفضل في الدنيا لفضل فصاحته وعربيته، أرأيت الآخرة ما باله فُضّل فيها؟ قال: إنّه يقرأ كتاب الله على ما أنزل الله، والّذي يلحن يحمله لحنه على أن يُدخل في كتاب الله ما ليس فيه، ويُخرج ما هو فيه، قلت: صدق الأمير وبرَّ ". و إن كانت هذه الرواية في نظري غريبة نوعا ما، فإن صحّت فهي تُبرز كيف كان ينظر الناس إلى من كان يلحن في كلامه.

لم يمسّ اللّحن التخاطب اليومي لعامة الناس وخاصّتهم فقط، بل تسرّب إلى القرآن الكريم وقراءاته، فاستعظم رعاة الأمة المسلمة هذا الأمر وأقلقهم، وسارعوا إلى معالجته خاصة أربعة من خلفاء الرسول ﷺ لاستفحال هذا المرض في عهدهم، وهم: عمر بن الخطاب، وعلي رضي الله عنهما، ثم زياد بن أبيه وهو على ولاية البصرة والكوفة، وأبو الأسود وهو على قضاء البصرة أو قبل ذلك أو فيما بعده.

ومن أمثلة هذا القلق ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حثّه على تجنّب الخطأ اللغوي الّذي يشوّه القراءة لكلام الله وكلام نبيّه الكريم، وما أبداه من الاهتمام باللغة العربية.

ورُوِي أيضا أنّه قدم أعرابي في زمان عمر رضي الله عنه. فقال من يقرئني مما أنزل الله على محمد (ص) فأقرأه رجل براءة، فقال: إنّ الله بريء من المشركين ورسوله، بجر (رسوله). فقال الأعرابي أو قد بريء الله من رسوله؟ إن يكن الله قد بريء من رسوله فأنا أبرأ منه. فبلغ ذلك عمر فدعاه. فقال: يا أعرابي أتبرأ من رسول الله ﷺ؟ فحكا له ما دار بينه وبين من أقرأه شيئا من براءة . فقال عمر: ليس هكذا يا أعرابي، قال : فكيف هي يا أمير المؤمنين؟ فقال: إنّ الله بريء من المشركين ورسوله، (بفتح أو ضم لام رسوله). فقال الأعرابي: وأنا أبرأ مما بريء الله ورسوله منه. فأمر عمر ألاّ يقرأ القرآن إلاّ عالم باللّغة، وأمر أبا الأسود فوضع النّحو.

وممّا رواه السيرافي أنّ أبا زياد بعث إلى أبي الأسود قائلا: "اعمل شيئا تكون فيه إماما وتعرب به كتاب الله" فلم يفعل ذلك حتى سمع قارئا يقرأ (وأنّ الله بريء من المشركين ورسوله) بكسر (رسوله) فهاله الأمر وسارع إلى وضع الشكل والتنقيط للقرآن الكريم، فكان ذلك أول بزوغ لشعاع النّحو العربي.

كلّ هذه الرويات على اختلاف نسبتها تؤكّد على ظهور اللّحن في قراءة القرآن وقراءاته، وتشير إلى سرعة علماء العربية ومسؤليهم إلى محاربة هذه الظاهرة التي تسيء إلى اللّغة العربيّة، وإلى فهم القرآن، وفساد مقاصده. فظهر النّحو ليصحّح من كلام الناس ما أفسدته ألسنتهم، لكن ينبغي أن نشير إلى أنّ اللحن لم يكن السبب الوحيد الّذي أوجد هذا البحث النّحوي بجميع نظرياته وأصوله، وإنّما يُعدّ من بين أهم الأسباب التي رسمت الخطوات الأولى للنشأة.

2- <u>حاجة الموالي إلى فهم العربية</u>:

لما كانت اللّغة العربية لغة القرآن، ولغة الدولة، ولغة الحياة المشتركة، والوعاء الحامل لحضارة الأمة، احتاج إليها أفراد الأمم الأخرى الذين دخلوا الاسلام، خاصة الموالي لكثرة انتشارهم في البلاد الاسلامسة، ذلك لأنّهم لا يعرفون العربية ولا يعرفون كلام العرب في تصرفه والنطق به، مما صعب عليهم الأمر فاتجهوا إلى تعلّم العربية وقواعدها، وانتحاء سمت كلام العرب لمعرفة قراءة القرآن، وفهم معانيه، والتقرب إلى ولاة أمورهم من أجل خدمتهم والحصول على بعض المزايا والمسؤوليات داخل الدولة الاسلامية، فتسابق موالي العراق، وموالي الشام إلى تعلّم اللغة العربية لدينهم ولدنياهم، فكان ذلك دافعا مهما، وحاجة ملحة إلى وضع علم النّحو. قال أبو شبرمة عبد الله بن شبرمة (ت: 145هـ) فقيه العراق وقاضي الكوفة في فضل تعلّم العربية: "إذا سرّك أن تعظم في عين من كنت في عينه صغيرا ويصغر من كان في عينك عظيما فتعلّم العربية فإنّها تجريك على النّطق وتدنيك من السّلطان".

كلّ هذا ساعدهم على الاحتكاك بعلماء النّحو الأوائل لتمكينهم من ناصية العربية. ولمّا رأى النحاة الأوائل رغبة الموالي في ذلك هيّأوا لهم الأرضية العلمية ورسموا لهم طريقا يوصلهم إلى منافذ اللّسان العربي في تصرّفه وإعرابه، ووضعوا لهم النّحو وبيّنوا لهم ضوابطه، وحدّدوا قواعده حفاظا على القرآن وسلامته من التحريف، ونشر تعليم مبادئ العربية بين أوساط أكبر فئة من الأعاجم.

3- <u>اعتزاز العرب بقوميتهم</u>:

أكرم الله سبحانه وتعالى الأمة العربية بأن اختار رسولا منهم، وأنزل القرآن الكريم بلغتهم، هذا التكريم رفع من مكانة العرب التي كانت لا تتعدّى حدود المشرق، وجعل اللّغة العربية لغة خالدة متميزة عن بقية لغات العالم، ممّا دفع بالعرب إلى أن يعتزّوا بلغتهم اعتزازا شديدا، وهو اعتزاز جعلهم يخشون عليها من الفساد حين امتزجوا بالأعاجم، مما جعلهم يحرصون على رسم أوضاعها، وضبط قواعد النحو فيها خوفا عليها من الفناء والذوبان في اللّغات الأعجمية.

<u>مراحل نشأة النّحو</u> :

لقد نشأ النّحو العربي أوّل أمره بسيطاً، فوضع أبو الأسود منه ما أدركه عقله ووصل إليه تفكيره، ثمّ أقرّه الإمام على ما وضعه، وأشار عليه أن يقتفي ما تلاه عليه، وذلك لحاجة الناس من العرب وغير العرب إلى هذا العلم، لغرض تقويم لسانهم وتخليصه من رطانة العجمة، ثمّ نما هذا العلم وترعرع بمرور السنين، وأخذ يسير بخطى حثيثة حتى نضج ودنا جناه.

ولمّا جاء العصر العباسي، كان النّحو العربي يدرس دراسة واسعة في البصرة والكوفة وبغداد، وهذا يعني أن الدرس النحوي مرّ بثلاثة مراحل نوجزها فيما يأتي:

<u>المرحلة الأولى</u>: <u>مرحلة الوضع والتّأسيس</u>:

وضع علماء العربية فيها اللّبنة الأولى لعلم النّحو وبعضاً من قواعده وأحكامه. وكانت هذه المرحلة بصرية خالصة، تتلخّص بواضع النّحو الأول أبي الأسود الدؤلي الذي تلته طبقتان من النحويين، أخذت عنه وتوصلت إلى استنباط الكثير من أحكامه ونشرها بين الطلاب، منهم: عنبسة بن الفيل، ونصر بن عاصم الليثي، وعبد الرحمن بن هرمز، ويحيى بن يعمر، وهؤلاء كلّهم من الطبقة الأولى الذين اعتمدوا على ما حفظوه من روايات في صدورهم.

أما الطبقة الثانية من العلماء فقد شهدت جملة مؤثرات لغوية دفعتهم إلى إضافة الكثير من القواعد واستخراج

الضوابط، وظهرت بينهم فكرة القياس، فدوّنت بعض الكتب، ومن علمائها ابن إسحاق الحضرمي، وعيسى بن عمر الثقفي، وأبو عمرو بن العلاء.

وتوصف هذه المرحلة بأنها تعتمد على الإقراء والملحوظات في إعراب الكلمات، حيث اهتم أصحابها بمحاربة اللحن في قراءة القرآن الكريم، فكانت باكورة ظهور الحركات الإعرابية على يد أبي الأسود الدؤلي من خلال إعجام حروف القرآن. ثم بدأت تظهر بعض الأسس النحوية منها: بناء الأصول، الخلاف النحوي، التأويل والتفسير للنصوص اللغوية، والتدوين النحوي.

المرحلة الثانية: مرحلة النمو:

وهي مرحلة بصرية كوفية، تبدأ بالخليل بن أحمد الفراهيدي، وأبي جعفر الرؤاسي، إذ اشترك المصران في تطوير مباحث النّحو والصرف، وجمعا أصولهما، وفرعا تفاريعهما، وساقا الشواهد وعلّل الأحكام، حتّى قطع النّحو شوطاً كبيراً وكثرت فيه المؤلفات.

ومن أشهر علماء هذه الطبقة الخليل بن أحمد الفراهيدي، وسيبويه، ويونس بن حبيب من أهل البصرة، وأبو جعفر الرؤاسي، والكسائي، ومعاذ البراء، والفراء من أهالي الكوفة. ويُعدّ كتاب سيبويه أشهر كتب هذه المرحلة، وهو صورة تعكس لنا طبيعة التأليف فيها، وكان منهجه قد أعجب العلماء فظلّوا سائرين عليه حقبة من الزمن.

عرفت هذه المرحلة بنضج القياس، ونضج التعليل النحوي اللّذين تأثر بالدراسات الكلامية والفقهية، وظهور العامل وبروزه في كل أبواب النحو وفصوله. كما عرفت هذه المرحلة نضج ونمو المصطلحات النّحوية المختلفة وتدرجها.

المرحلة الثالثة: مرحلة النضج:

عرفت هذه المرحلة تنافسا علميا شديدا بين البصريين والكوفيين، مما ساعد النّحو على بلوغ مكانة عالية من النضج والإكتمال. وانْشغل أصحاب هذه المرحلة بالمناظرات، وإكمال ما فات الأوّلين، وبدأوا بشرْح ما أجمله الأوائل وبسْط ما يستحقّ البسط، وهذّبوا التعريفات وأكملوا بعض المصطلحات، وفصلوا الدراسات الصرفية عن الدراسات النحوية، فقد ألّف المازني كتاباً في الصرف وحده، ومن علماء هذه المرحلة من البصريين أبو عثمان المازني، وأبو عمر الجرمي، وأبو محمد التوزي، وأبو حاتم السجستاني، والرياشي، والمبرد، ومن الكوفيين ابن السكيت، ومحمد بن سعدان، وثعلب.

وشهدت هذه المرحلة ظهور العديد من المؤلفات منها ما اختصّ بالصّرف وحده، ومنها ما اختص بالنّحو وحده، ومنها ما خلطت العلمين معاً.

مراجع المحاضرة:

– إنباه الرواة على أنباه النحاة، القفطي،تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية بيروت، ط1، 1406هـ، 1986م.
– طبقات النحويين واللغويين، أبو بكر الزبيدي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط:2، 1984م.
- البحث اللغوي عند العرب، أحمد مختار عمر، ، عالم الكتب، ط:8، 2003م.
- الأصول، تمام حسان، ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط: 1982م، ص:31.
– المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، تح: مجموعة من الأساتذة، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت، ط: 1986م .
– البيان والتبيين، الجاحظ، تح: فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، ط1، 1968م .
– بحوث ودراسات في اللسانيات العربية ، عبد الرحمن الحاج صالح، موفم للنشر، ج:1.

أسئلة تطبيقية:

1- حدّد زمان ومكان نشأة النحو العربي.
2- تعدّدت الروايات حول منهج تأسيس النحو العربي أيها تراها أقرب إلى العقل؟ ولماذا؟
3- بدأ تأسيس النحو بسيطا ثم تطور إلى أن أصبح على ما هو عليه الآن. ما هي جهود النحاة الأوائل التي مكنتهم من الوصول إلى هذه النتائج المبهرة؟
3- ما هي الأسباب الرئيسة التي أدت إلى نشأة النحو العربي؟ وما هي مراحل نشأته؟